والسيف لم يلف فيه صيقل من طبعه لم ينتفع بصقال

فيا لها غنيمة لم يرجف عليها من خيل ولا ركاب ولم يزحف إليها بعدو عدية ولا بلحاق لاحق وانسكاب سكاب فلذلك صرفوا همهم إلى العلوم التي هي نتيجة أو مادة لعلم البيان كاللغة والنحو الفقه والحديث وتفسير القرآن وأما أهل بلاد المشرق الذين لهم اليد الطولى فى العلوم ولا سيما العلوم العقلية والمنطق فاستوفوا همهم الشامخة فى تحصيله واستولوا بجدّهم على جميلة وتفصيله ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا عنها بملء سجلهم وكيف لا وقد أجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم فلذلك عمروا منه كل دارس وعبروا من حصونه المشيدة ما رقد عنه الحارس عنان السماء فى طلبه ولو كان الدين بالثريا لنا له رجال من فارس إلى أن خرج عنهم المفتاح فكأن الباب أغلق دونهم وظهر من مشكاة بلاد الغرب المصباح فكأنما حيل بينه وبينهم وأدارت المنون على قطبهم الدوائر فتعطلت بوفاته من علومه أفواه المحابر وبطون الدفاتر وانقطعت زهراتهم الطيبة عن المقتطف وتسلط على العضد لسان من يعرف كيف تؤكل الكتف فلم نظفر بعد هؤلاء الأئمة رحمهم الله تعالى من أهل تلك البلاد بمن يخص هذا العلم فألقى للطالب زبدته ومحض النصح فنشر على أعطاف العارى بردته ولا حملت ص ٦ قبول القبول إلينا عنهم بطاقة ولا حصلت للمتطلعين لهذا العلم على تلك الأبواب طاقة ولا رأينا بعد أن انطمست تلك الشموس المشرقة واندرست طبقة تحرى الفرقة ولم يبقى إلا رسوم هى من فضائلهم مسترقة من أطلع غصن قلمه من روض الأذهان زهرة على ورقة ولا من علق شنه بطبقتهم فيقال وافق شن طبقة بل ركدت بينهم فى هذا الزمان ريحة وخبت مصابيحه وناداهم الأدب سواكم أعنى وربّ كلمة تقول دعنى :

وما بعض الإقامة فى ديار يهان بها الفتى إلا بلاء

فعند ذلك أزمع هذا العلم الترحل وآذن بالتحول :

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله فى منزل فالرأى أن يتحوّلا

وفزع إلى مصر فألقى بها عصا التيار وأنشد من ناداهم من تلك الديار :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى تخب بى الركاب ولا أمامى

ولقد وصل إلينا من تلك البلاد على التلخيص شروح رحم الله مصنفيها فإنهم ماتوا وهم أخبار وبيض وجوههم فى الآخرة كما سودهم بالمعالى فى هذه الدار لا تنشرح لبعضها الصدور الضيقة ولا تنفتح عندها مغلقة ولا ينقدح فيها زناد الفكر عن مسئلة محققة يتناولون المعنى الواحد بالطرف المختلفة ويتناوبون